معاملة المسلمين لأهل الكِتاب من خلال القرآن الكريم والسيرة النبوية

Treatment of Muslims for the People of the Book through the Holy Quran and the Prophet's biography

د. محمد ديرا: باحث في الفكر الإسلامي وتاريخ الأديان، الأكاديمية الجهوية الدار البيضاء، سطات المغرب

Dr. Mohamed Dira: Researcher in Islamic Thought and History of Religions, Regional Academy of Casablanca, Settat, Morocco

Email: Mohamed_dira@hotmail.com

الملخص:

تبرز هذه الدراسة تصور الإسلام للعلاقة مع أهل الكتاب انطلاقا من نصوص القرآن الكريم ووقائع السيرة النبوية وتطبيقات الصحابة الكرام، كما تعتمد المنهج التاريخي الذي يهدف إلى فهم الماضي وتنزيله على الحاضر والمستقبل، مبينة موقف الإسلام من التعامل مع أهل الكتاب، ومستنبطة للقواعد القرآنية والنبوية التي يجب التزامها عند الحوار حتى يكون مثمرا وقاصداً. وانتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها بأن الإسلام أقر المساواة الإنسانية عامة، وجعل معيار التفاضل بين البشر هو التقوى والعمل الصالح الذي يفيد البشرية في العاجل والآجل، كما توصلت إلى أن الإسلام لم يُجَرّم التعامل الإنساني والتجاري مع أهل الأديان الأخرى بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفي وذرعه مرهونة عند يهودي، بالإضافة إلى زواجه من مارية القبطي، ناهيك عن وصايا القرآن الكريم بمعاملة المسالِمين منهم بالبر والإحسان والقسط ومجادلتهم بالحسنى.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، السيرة النبوية، أهل الكِتاب، أهل الذمة.

Absrtact:

The study aimed to show the Muslims' interest in interpretation of the Holy Quran, understanding its meanings and deducing its provisions. Their ways varied in presenting its sciences, and their approaches differed in clarifying its secrets, essence and pearls. To achieve the aims of the study, the researcher used the conductive method, thus the study reached to a set of results, including the one who is contemplative in the transmitted interpretations from the followers stands on multiple sources for their interpretations. In addition, to what they took from the people of the book, which led to interpretation by opinion, bearing in mind that the narrations transmitted from them are subjected to acceptance and response reviews. The study presented a set of recommendations, the most important is emphasizing the importance of understanding the Holy Quraan and dealing

with it through the good explanatory principles, and the fair scientific methodology which respects the right evidence with highlighting the error of who try to understand The Holy Quran in the light of different religions, beliefs, and philosophies, without neglecting the importance of encouraging the documented and authentic studies which are related to the history of the Holy Quraan and its sciences and knowledges.

Keywords: Holy Quran, biography of the Prophet Mohammed, people of the book, people of dhimma

الإطار المنهجي للدراسة:

المقدمة:

لقد قرر الإسلام بأن الناس سواسية كأسنان المشط، لا تمييز بينهم إلا بالعمل الصالح، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: 13]، وعلى هذه الآية بُنيت كثيرٌ من الأحاديث النبوية التي تؤكد المساواة البشرية بين الناس عامة بِغض النظر عن الدين أو العرق اللون، عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول صلى الله عليه وسلم أيام التشريق أنه قال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)[1]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[2].

وبجانب هذه النصوص العامة في شأن كل إنسان نجد القرآن الكريم خصص آيات كثيرة للحديث عن مزايا أهل الكتاب[3] ومحاسنهم عقيدة وسلوكا، فقال تعالى مُثْنِيا عليهم: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

1- أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، رقم الحديث 22978.

2- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث: 13.

3- أهل الكتاب هم اليهود والنصارى بفرقهم المختلفة ومن دَانَ دينهم، وسموا بأهل الكتاب لأنهم أتباع ديانات نزلت فيها كتب سماوية (التوراة لليهود والإنجيل للنصارى).

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: 113-114]. وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[آل عمران: 199]. وقال في كيفية معاملتهم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة: 8]. ويقول سبحانه وتعالى في النصارى خاصة: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[المائدة: 83/82].

بل نجد القرآن الكريم أمر المسلمين بالعفو والصفح عن الكتابيين الذين أرادوا فتنة المومنين وتشويه عقيدتهم وإذايتهم، فقال تعالى مخاطبا إياهم: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]، وقال أيضا: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: 109]، وقال مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الجاثية: 14]، كما أمر سبحانه وتعالى بعدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: 46].

ومما يبرز الحد الكبير الذي وصله الإسلام في تقرير مبدأ المساواة والتعايش السلمي بين البشر عامة وأهل الكتاب خاصة ما جاء في القرآن الكريم من تبرئة اليهودي الذي اتهمه المسلمون بسرقة درعٍ لهم، فقال تعالى في شأن ذلك:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105].

وبجانب هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على المساواة بين البشر وتدعو إلى التعايش والتآخي والانفتاح، نجد آياتٍ أخرى تؤكد على حرية الإنسان التامة في اعتقاد ما يشاء، قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[البقرة: 256]، وقد ورد في تفسير ابن كثير[4] عن ابن عباس أن الآية نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: "الحصيني"

4- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، ط2، 1999، 682/1.

كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلما، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك. وفيه أيضا: أنهما تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتا، فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث في أثرهما، فنزلت الآية. وهكذا نجد أن حرية الاعتقاد مكفولة في الإسلام، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم منع الوالد من أن يُكره ابنه على دينٍ لا يرضاه.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تتمثل مشكلة الدراسة في ماهية العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب وذلك من خلال الإجابة على التساؤل الرئيس: كيف يجب معاملة أهل الكتاب انطلاقا من هدي القرآن الكريم وتوجيهات السيرة النبوية؟

ويندرج تحت هذا التساؤل أسئلة فرعية وهي:

- ما هي النماذج النبوية في التعامل مع أهل الكتاب؟
- ما منهج الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية؟

أهداف الدراسة:

- إبراز بعض النماذج النبوية في التعامل مع الكتابيين.
- إدراك منهج الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب من خلال هدي القرآن الكريم والسنة النبوية.
- محاولة تمثل قواعد القرآن الكريم والسنة النبوية في التعامل مع أهل الكتاب.

هيكل الدراسة:

الإطار المنهجي للدراسة

- المبحث الأول: نماذج من تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب.
- المبحث الثاني: منهج الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة
- الخاتمة والنتائج

المبحث الأول: نماذج من تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب

تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب معاملة حسنة انطلاقا من أخلاقه العظيمة التي وصفه بها ربه جلا وعلا في قوله: "وإنك لعلى خلق عظيم"[القلم:4]، وكذلك من خلالِ ما أقره القرآن الكريم في شأن التعامل معهم. ومن النماذج التي يمكن أن نذكرها في هذا الباب ما يلي:

أولا: اليهود:

لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان همه الكبير "أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز"[5]، وبما أن المدينة المنورة كانت متنوعة الأديان والأعراق فقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في تنظيم العلاقة مع الآخر سواء كان يهوديا أم وثنيا، وهكذا وضع لتحقيق هذا الهدف دستورا سماه "الصحيفة" أو "وثيقة المدينة" كما سُميت لاحقا، وقد تضمنت سبعا وأربعين مادة، اثنتان وعشرون منها تتعلق بالعيش المشترك والعِشرة الحسنة مع اليهود، ومن أبرز مواد هذه الوثيقة[6]: "...وأن يهود بني عوف أمة مع المومنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مَواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحفية، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإن النصر للمظلوم... وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم...".

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال "وثيقة المدينة" يرغب في العيش المشترك مع اليهود في المدينة المنورة لكنهم نقضوا العهد والاتفاق، وناصبوا المسلمين العداء في السر والعلن، فمنهم من بدأ يُظهر الحقد والتحدي للرسول صلى الله عليه وسلم مثل يهود بني قينقاع، ومنهم من غدر بالمسلمين بعد الهزيمة في غزوة أحد وتآمروا على الرسول صلى الله عليه وسلم لقتله مثل يهود بني النظير، ومنهم من ارتكب جناية الخيانة العظمى بتحالفهم مع قريش كما هو الشأن بالنسبة ليهود بني قريظة، وهكذا أصبحوا يشكلون خطرا على وحدة المدينة المنورة وتماسكها فأجلاهم منها حفاظا على أمنها وسلامة ساكنيها، ومن هنا يظهر بأن إجلاء الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود لم يكن بسبب دينهم أو معتقدهم، بل لكيدهم للدولة الناشئة ورغبتهم في تقويض استقرارها بالتحالف مع خصومها. وفي هذا يقول المستشرق "مارسيل بوازار": "...ونظرا لإفادة

[5]- حياة محمد صلى الله عليه وسلم، محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط14، 1981، ص236.

[6]- انظر نص الوثيقة كاملة في السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط7، 1999، 2/143-146.

اليهود من الرسالة السماوية فقد اعتُبروا تقريبا أعضاء كاملين في مجتمع المؤمنين، وأَمَّن لهم الميثاق والحماية، وضمن لهم الحق والحرية والأمن مماثَلَة للتي للمسلمين... وقام نوع من الاتحاد الكونفدرالي بين القبائل العربية المسلمة والقبائل اليهودية كاد أن يؤدي إلى تَكَوُّن جنين دولةٍ جديدة بعد قطعه كل علاقة الولادة القبلية الضيقة، واختياره بنية اجتماعية فوقية جديدة، لكن مجرى الأحداث أبطل هذا الميثاق بسبب خيانة القبائل اليهودية، ففي عام 626 م، وبعد ثلاثة خلافات عنيفة، نُفيت قبيلتان، وقُضي على الثالثة لتحالفها مع أعداء الدين الجديد"[7].

ثانياً: النصارى:

كان احتكاك النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بالنصارى في البداية احتكاكا محدودا جدا نظرا لقلة النصارى في الجزيرة العربية في تلك الحقبة من الزمن، ومع ذلك يحدثنا التاريخ وكتب السيرة عن نماذج من لقاءات الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصارى، فقد التقى صلى الله عليه وسلم بالراهب "بحيرى" في الشام حينما سافر مع عمه "أبي طالب"، ثم تلاه احتكاكه مع "ورقة بن نوفل" عبر زوجته "خديجة بنت خويلد" رضي الله عنها، ولما اشتد اضطهاد المشركين للمسلمين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة التي كانت تدين بالنصرانية، فقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا"[8]، بالإضافة إلى زواجه من مارية القبطية.

وإذا رجعنا إلى لقائه صلى الله عليه وسلم "بورقة بن نوفل" نجد أن كتب التاريخ والسير فصلت ذلك تفصيلا، فلما نزلت أول آية من القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء رجع إلى خديجة رضي الله عنها فزعا وأخبرها بما رأى، فطمأنته، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، وانطلقت إلى "ورقة بن نوفل"، وهو ابن عمها، وكان "ورقة" على دين النصرانية وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال "ورقة بن نوفل": قُدُّوس قدوس، والذي نفس "ورقة" بيده لئن كُنْتِ صدقتِنِي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت. كما أن "ورقة بن نوفل" لقي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له "ورقة": والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكذَّبنَّ ولتُؤذَيَن ولتُخْرَجَن ولتُقَاتَلَن، ولئن

7- إنسانية الإسلام، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1983، ص 191.

8- السيرة النبوية، ابن هشام، 349/1.

أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل رأسه، ثم انصرف رسول الله[9].

ويعد هذا اللقاء الأول من نوعه بين النبي صلى الله عليه وسلم وأحد أتباع أهل الكتاب، ومن ثم فهو يحمل معاني كثيرة، منها أن "ورقة بن نوفل" العالِم بالكتب السماوية السابقة كان أول من صدق برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودعاه إلى الثبات على الحق، ووعده بنصرته إن أمد الله في أجله.

ولم تكتف خديجة رضي الله عنها بذلك كما يروي صاحب (الروض الأنف)[10] بل ركبت إلى "بحيرى" الراهب، فسألته عن جبريل، فقال: قُدُّوسٌ قدوس، يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بَعْلِي وابن عمي محمد أخبرني أنه يأتيه، فقال: قدوس قدوس، ما علم به إلا نبي مقرب، فإنه السفير بين الله وأنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به، ولا أن يتسمى باسمه. كما أرسلت إلى غلامٍ نصراني لعتبة وشيبة ابني ربيعة واسمه "عداس"، وعنده علمٌ من الكتب السماوية تسأله عن جبريل، فقال: قدوس قدوس، أنى لهذه البلاد أن يذكر فيها جبريل يا سيدة نساء قريش؟ فأخبرته بما يقول النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عداس مثل مقالة الراهب. ولما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف بعد إذاية أهلها له، لجأ إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما رأياه وما لقي رق له قلبهما، فدعوا له عداسا، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى ذلك الرجل، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل، فلما وضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: "والله إن هذا لكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبل رأسه ويديه وقدميه[11]. وقد ظل عداس وفيا للرسول صلى الله عليه وسلم ومخلصا لإيمانه حتى عند خروج قريش لغزوة بدر الكبرى حيث كان يمنعهم من قتاله، روى الواقدي في مغازيه، قال: "...كان حكيم يقول: لقد رأيتنا حين بلغنا الثنية البيضاء... إذا (عداس) جالس عليها والناس يمرون، إذ مر عليه ابنا ربيعة، فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غرزهما، وهو يقول: بأبي

9- السيرة النبوية، ابن هشام، 269/1-270.

10- أبو القاسم السهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار المعرفة، بيروت، 325/1.

11- عيون الأثر، ابن سيد الناس، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، 178/1-179.

وأمي أنتما، والله إنه رسول الله، وما تساقان إلا إلى مصارعكما، وإن عينيه لتسيل دموعهما على خديه، فأردت أن أرجع أيضا، ثم مضيت، ومر به العاص بن منبه بن الحجاج، فوقف عليه حين ولى عتبة وشيبة فقال: ما يبكيك؟ فقال: يبكيني سيداي وسيدا أهل الوادي، يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله، فقال العاص: أمحمد رسول الله؟ قال: فانتفض عداس واقشعر جلده، ثم بكى وقال: "إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة"[12].

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة وبدأ الإسلام ينتشر سريعا بين القبائل أخذ زعماء القبائل والمدن والقرى يأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم للمبايعة أو أخذ العهد، ومن بين القبائل التي قَدِمت لأخذ العهد من النبي صلى الله عليه وسلم بعض الوفود النصرانية، وسأذكر هنا بعض النماذج التي تدل على اللقاء المتواصل بين المسلمين والنصارى منذ زمن بعيد:

1- لقاء النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد نصارى نجران:

جاء هذا الوفد إلى المدينة المنورة كما ورد في سيرة ابن هشام[13] في ستين راكبا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، ولما دخلوا المسجد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون، فحاول بعض الصحابة منعهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: دعوهم، فصلوا إلى المشرق، وبعد الصلاة بدأ كبار الوفد وهم: "أبو حارثة بن علقمة"، و"العاقب عبد المسيح"، و"الأيهم السيد" في مجادلة الرسول صلى الله عليه وسلم حول المسيح عيسى عليه السلام، وهل هو الله؟ أم ابن الله؟ أم ثالث ثلاثة؟ ثم سألوه عن والد عيسى عليه السلام فسكت عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم، لأنه علم أنهم معاندون لا يريدون الحق، وقد نزل فيهم بداية سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية، ومنها آية المباهلة، ولما يئس الرسول صلى الله عليه وسلم من إسلامهم أو إقناعهم دعاهم إلى الملاعنة إن أرادوا ذلك، فقالوا له: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه ثم خلوا (بالعاقب)، وكان ذا رأيٍ فيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث

[12]- المغازي، الواقدي، عالم الكتب، بيروت، 34/1.

[13]- السيرة النبوية، ابن هشام، 215/2- 216.

معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا، فصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم، وكتب لهم عهدا وأمانا جاء فيه: "ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وألا يغيروا مما كانوا عليه بغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب من رهبانيته"[14].

2- عهده مع نصارى دير سانت كاترين

كتب الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى "دير سانت كاترين" بالقرب من جبل سيناء عهدا جاء فيه: "هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين، بشيرا ونذيرا، ومؤتمنا على وديعة الله في خلقه، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما، كتبه لأهل ملته، ولجميع من ينتحل دين النصرانية في مشارق الأرض ومغاربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجميها، معروفها ومجهولها، كتابا جعله لهم عهدا، فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثا، ولميثاقه ناقضا، وللعنة مستوجبا، سلطانا كان أو غيره من المسلمين المؤمنين. لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا حبيس من صومعته، ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبِيَعهم، ولا يدخل شيء من بناء كنائسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين، فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله، ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة. وأنا أحفظ ذمتهم أين ما كانوا من بر أو بحر في المشرق والمغرب والشمال والجنوب، وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه، ولا يُجادَلوا إلا بالتي هي أحسن، ويخفض لهم جناح الرحمة، ويكف عنهم أذى المكروه حيث ما كانوا... وكتب علي بن أبي طالب هذا العهد بخط يده في مسجد النبي صلي الله تعالى عليه وسلم وشهد بهذا العهد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم: أبوبكر بن أبي قحافة، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبدالله بن مسعود، العباس بن عبدالمطلب، الزبير بن العوام"[15].

ويحتفظ رهبان دير "سانت كاترين" بصور هذه العهدة المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم إلى اليوم[16].

14- البداية والنهاية، ابن كثير، بيروت، ط1، 1966، 55/5.

15- روح الإسلام، سيد أمير علي، مكتبة الآداب، القاهرة، 1961، ص 168.

16- انظر انتشار الإسلام، محمد فتح الله الزيادي، دار قتيبة، بيروت، 1990، ص 100-101.

3- عهده صلى الله عليه وسلم مع أهل حمير:

جاء في معاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم مع ملوك حمير قوله: "وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المومنين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها"[17].

4- لقاء النبي صلى الله عليه وسلم مع الجارود بن عمرو:

وهو من بني عبد القيس، وكان اللقاء في السنة السادسة للهجرة، وكان زعيما لقومه يعتنق النصرانية، فعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه، فقال: "يا محمد إني قد كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، أنا ضامن أن الله قد هداك إلى ما هو خير منه، فأسْلَم وأسلم أصحابه"[18].

وبهذه السنة الحميدة سار الخلفاء والأمراء من بعده، فقد حوت عهود الأمان التي عقدوها مع زعماء البلدان التي فتحوها نفس روح التسامح، وسارت كلها في اتجاه واحد، فقد نَفَّذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه العهد الذي عقده الرسول صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران، ولما جاء عمر بن الخطاب رآهم تعاملوا بالربا فأجلاهم، فلما جاء عثمان بن عفان اشتكوا منه ذلك، فكتب إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة: "أما بعد، فإن العاقب والأسقف وسراة نجران أتوني بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأروني شرط عمر، وقد سألت عثمان بن حنيف عن ذلك فأنبأني أنه بحث عن أمرهم فوجده ضارا للدهاقين لردعهم عن أرضهم، وإني قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم، وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة"[19].

وكتب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل إيلياء (القدس) عندما فتحها المسلمون عام 638ه كتابا أَمَّنهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم، ومما جاء فيه: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المومنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم...، وأنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم"[20].

17- السيرة النبوية، ابن هشام، 4/231-232.

18- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، مؤسسة عز الدين، بيروت، ط3، 1992، 2/199.

19- فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق: عبد الله أنيس وعمر أنيس، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987، ص 89.

20- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، 2/305.

كما صالح أبو عبيدة عامر بن الجراح أهل بعلبك بعهد جاء فيه: "هذا أمان لأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها، وعلى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودُورهم داخل المدينة وخارجها... ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها"[21].

ونصت معاهدة خالد بن الوليد لأهل (عانات) قرب دمشق على أنَّ: "لهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلاة، وأن يُخرجوا الصلبان في أيام أعيادهم"[22]. وكتب عمرو بن العاص عهدا لأهل مصر جاء فيه: "هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص..."[23].

وعاهد حذيفة بن اليمان أهل (ماه دينار) بقوله: "أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم لا يغيرون عن ملة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنَعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم من المسلمين"[24].

فهذه النماذج وغيرها تمنح أهل الشرائع الأخرى الحرية الشخصية الكاملة بما فيها حرية العقيدة والعبادة، ولم يكتف المسلمون بترك الكنائس للنصارى حسب العهود، بل سمحوا بإنشاء كنائس جديدة، ففي مصر مثلا سمح عمرو بن العاص رضي الله عنه ببناء الكنائس للأقباط، فتم بناء كنيسة (مار مرقص) بالإسكندرية، وكنيسة أخرى في الفسطاط أيام ولاية مسلمة بن مخلد (63/47ه)، كما ارتفعت وثيرة إنشاء الكنائس في القاهرة حاضرة الفاطميين، ولا غرابة في ذلك إذ يعد الفاطميون من أكثر الحكام تسامحا مع غير المسلمين. وفي العراق مع قيام الدول العباسية وإنشاء مدينة بغداد سمح الملوك للنصارى ببناء معابد وكنائس عديدة في شرقها وغربها، واشتهرت الكنائس بأبنيتها الشامخة وقبابها العالية وساحاتها الواسعة[25].

---

[21]- فتوح البلدان، البلاذري، ص 93.

[22]- الخراج، أبو يوسف، المطبعة السلفية، القاهرة، ط2، 1383 هجرية، ص 146.

[23]- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، 365/2.

[24]- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، ص441، دار النفائس، بيروت، ط6، 1987، ص 441.

[25]- انظر: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، نريمان عبد الكريم أحمد، الهيئة المصرية العامة، 1996، ص72-75.

المبحث الثاني: منهج الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة

أرسى القرآن الكريم والسنة النبوية قواعد كلية يمكن أن تشكل منهاجا متكاملا في الحوار والتعامل مع أهل الكتاب في كل زمان ومكان، ويمكن أن نذكر من تلك القواعد على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

القاعدة الأولى: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة:

لا يمكن أن يقوم حوار بين فريقين إلا عبر مسلكين، أحدهما مذموم والآخر محمود:

- **المسلك الأول (مذموم):** قيام الحوار على أساس العنف والقتل وسفك الدماء، وبث الأحقاد والضغائن، وازدراء الأديان والمقدسات، وهذا الطريق لا يساهم إلا في إبعاد الشقة وترسيخ التباعد والانقسام والحروب، ويواجهه التوجيه القرآني للرسول صلى الله عليه وسلم بالانسحاب الهادئ وإنهاء العلاقة الحوارية بأيسر الطرق، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: 41]، وقد كانت وصية الرسول صلى الله عليه وسلم الدائمة لكل من يبعثه لمهمة من المهام الدعوية والتدبيرية: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا)[(26)].
- **المسلك الثاني (محمود):** قيام الحوار على أساس السلم والاحترام المتبادل، مصحوبا باللين والرفق والكلمة الطيبة التي تفتح القلوب إلى الحق فَتُبصره، ويتأسس هذا المسلك على ما يلي:

أ- الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن: ويتضح ذلك من خلال الآيات الكريمة الآتية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: 33]

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: 125].

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[العنكبوت: 46].

والجدال بالتي هي أحسن يكون بالتعبير الهادئ والرفيق، وبأسلوب سلمي يستند إلى الحجج والبراهين بعيدا عن الانفعال والتعصب والعنف. ومن نتائج هذا النوع من الحوار أنه يحول

[26]- أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم الحديث: 1732.

العدو إلى صديق، والبعيد إلى قريب، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: 33].

ب- اعتماد الحجج العقلية والبراهين المنطقية:

فالقرآن الكريم يهدف إلى إقامة الحجة والبرهان، والمنطق العلمي والعقلي، ومن القواعد الثابتة عند المسلمين في بحثهم عن الحقيقة قولهم: إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران: 59-60].

فالقرآن الكريم هنا يخاطب النصارى الذي اتخذوا المسيح إلها بالمنطق والحجة والبرهان، فيقول لهم: إذا كنتم قد اتخذتم المسيح إلها لأنه خُلق بمعجزة، وهي كونه وُلد من دون أب، فإن آدم عليه السلام خُلق قبله من تراب ومن دون أب أو أم، فلماذا لا تتخذون آدم إلها أيضا كما تتخذون المسيح بناء على نفس منطقكم، ليؤكد لهم أن عيسى ليس إلا مثالا لنبي الله آدم عليهما السلام.

ج- تجنب استثارة مشاعر العداء:

فالحوار يفقد قيمته الإيجابية إذا كان همُّ المحاور تحقيق الانتصار وإشباع رغبته في شهوة التغلب وإظهار مشاعر العداء والأنانية والإساءة للآخر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تَعَلَّموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار)27.

من ثم كان على المحاور أن يكون هادئ النفس بعيدا عن الانفعال حتى يحفز الآخر لطرح ما عنده من مبادئ وأفكار، أما الانفعال ورفع الصوت فإنهما علامة العجز والضعف في مواطن العقل ومقابلة الحجة بالحجة، فالعاجز الذي يفشل في عرض ما عنده من براهين يعوض فشله برفع الصوت والغضب والانفعال وإظهار مشاعر العداء تجاه الطرف الآخر28، خاصة وأن الإسلام أرشد إلى الابتعاد عن الغضب وتسكينه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطْفَأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)29.

27- أخرجه ابن ماجة، المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم الحديث: 345.

28- انظر: أدب الحوار والخلاف في الشريعة الإسلامية، أحمد صحاوي، ص 118، مجلة دراسات، العدد 1.

29- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: ما يقال عند الغضب، رقم الحديث: 4782.

وقد بلغ القرآن الكريم شأوا بعيدا في تجنب استثارة الطرف الآخر حين نهى المسلمين عن شتم وسب آلهة المشركين رغم أنها معبودات باطلة في نظرهم، لأن من شأن ذلك أن ينفر المشركين ويبعدهم عن الإيمان، بل قد تدفعهم إلى سب الله سبحانه وتعالى، قال عز من قائل: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 108]. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قالت كفار قريش لأبي طالب: إما أن تنهى محمدا وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها، وإما أن نسب إلهه ونهجوه"[30]. كما ذهب المفسرون إلى أن حكم هذه الآية باقٍ وممتد، يقول القرطبي: "وحكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنَعة، وخِيف أن يُسب الإسلام، أو النبي صلى الله عليه وسلم، أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية"[31].

د- حسن الاستماع وأدب الإنصات:

من الأسس المتبعة والقواعد المرعية التي يجب الالتزام بها في الحوار الاستماع الجيد للآخر، فالإسلام حث على الاستماع إلى المحاور أثناء الحديث، لاسيما وأن الاستماع الجيد يعطي الفرصة لتفحص ما عنده فتعم الفائدة، ومن ثم كان الإنصات ضروريا حتى يكون الرد والمشاركة في الحوار أكثر جدية، وهذا يتطلب من المتحاورين حسن الاستماع وعدم المقاطعة والعجلة في الرد.

وكذلك يتطلب من المستمع تدبر ما يسمع، وله أن يستفهم إن لم تكن المقاطعة ستُخرج الكلام عن موضوعه أو تُشتت ذهن المتحدث.

وقد كان حوار الأنبياء يبدأ بحسن التعبير عن المقصد من إرسالهم، وغرض الرسالة، وبيان صفات وعظمة المرسل وهو الله تعالى، حتى إذا انتهوا استمعوا للمخالف على ما في كلامه من شدة وقوة، بل وتسفيه في أحيان كثيرة، وهذا وارد في قصة هود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى عليهم صلوات الله وسلامه.

ثم على المستمع الصبر على ما قد يراه ماسا بفكرته أو منهجه، لأن ذلك لا يعد سببا للمقاطعة، بل عليه الإنصات إلى انتهاء المحاور.

30- لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1981، ص 119.

31- الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427، 61/7

هـ- تقدير الخصم واحترامه:

على المحاور أن يراعي في حواره مع أي طرف كان الاحترام والأخلاق الفاضلة والتقدير الواجب، سواء كان الطرف الآخر مسلما أم غير ذلك، فيعطي كل ذي حق حقه ويُنزل الناس منازلهم، فليس الكبير كالصغير، وليس الرئيس كالمرؤوس، وليس الشريف في قومه كغيره، مع الانضباط بالضوابط الشرعية والبعد عما يخالفها[32].

ومِن إنصافِ المخالف ذِكر إيجابياته وموافقته فيما يَصدر عنه من حق وصواب، ومَنْ تأمل آيات القرآن الكريم التي ذكرت أهل الكتاب وصفاتهم الذميمة يجد أن الله عز وجل لم يبخس حق ذوي الأخلاق منهم، بل أنصفهم غاية الإنصاف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾[آل عمران: 75]، **وقوله تعالى:** ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: 114/113]. والمسلم رائده الحق، وضالته الحكمة، فهو يقرها ويأخذ بها من أي طريق جاءت، فالرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي هريرة عن الشيطان مصدر الشرور والآثام: (صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان)[33].

وعلى هذا الأدب درج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأقروا لمخالفيهم ما عندهم من صور إيجابية، قال المستورد القرشي وهو عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس. فقال له عمرو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك)34. وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي بما فيه من صفات الخير وهو يومئذ على

[32]- انظر: الإسلام والحوار الحضاري، مانع بن حماد الجهني، ضمن كتاب: "الإسلام وحوار الحضارات"، أعمال الندوة التي نظمتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 2004، 137/3.

[33]- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم الحديث: 3275.

34- أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، رقم الحديث: 7179

الكفر، فقال لأصحابه: "إن بالحبشة ملكا لا يظلم عنده أحد، فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجا"[35].

- **القاعدة الثانية: التركيز على نقاط الاتفاق والانطلاق منها لتقرير نقاط الاختلاف:**

إن وحدة الأصل السماوي للأديان وربانيتها من حيث المصدر والغاية لَيُرشِد بشكل واضح وصريح إلى البحث دائما عن الأسس المشتركة التي جاءت بها مختلف الشرائع. ومن المصلحة والحكمة ألا يبدأ الحوار بالقضايا الخلافية، بل بالمواضيع المتفق عليها لتثبيتها، ثم التدرج منها إلى ما يشبهها أو يقاربها، ثم إلى المواضيع الخلافية.

- **القاعدة الثالثة: تجنب الإكراه:**

لا يحق لأحد من أطراف الحوار أن يمارس الإجبار أو الضغط على الآخر ليحوله عن معتقده أو فكره، بل يجب ضمان حرية العقيدة والفكر، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: 99]، وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية: 21-22].

- **القاعدة الرابعة: الإعراض والصبر وتحمل الأذى:**

فقد يتحول الحوار إلى طعنٍ وتشويه للإسلام وعقيدته، ونيلٍ من رسالته وسموها، وإساءةٍ إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، وهنا يجب على المسلم مقابلة ذلك بالإعراض والصبر وعدم التعامل بالمثل، وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا الأمر، يقول تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: 109]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[آل عمران: 20]، وقوله سبحانه: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[آل عمران: 186]. ولعل أبرز ما يوضح ذلك صراحة هو ما جاء في سورة الكافرون التي تسمى "بالفاصلة": ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[الكافرون: من1 إلى 6].

[35]- السير والمغازي، ابن اسحاق، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1978، 30/1.

- **القاعدة الخامسة: التعايش السلمي**

تعتبر هذه القاعدة من أهم القواعد التي يجب أن يعمل على ترسيخها أهل الشرائع المختلفة ليعيشوا في وئام وإخاء رغم اختلاف الدين والمعتقد، وهذا التعايش يقوم في الإسلام على أساس الحق والإحسان، يقول تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الممتحنة: 8-9].

وقد تجسدت هذه القاعدة واقعا في تطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد نصارى نجران -كما سبق الذكر-، فحين وصل الحوار العقدي إلى طريق مسدود تحول الحوار إلى ترسيخ التعايش السلمي ووضع مبادئ العيش المشترك سواء من خلال العهد الذي أعطاه إياهم، أو من خلال باقي العهود التي ذكرنا بعضها سالفا.

ومن القضايا التي يجب العمل على ترسيخها في إطار التعارف والتعايش السلمي التأكيد على القيم والأخلاق الإنسانية الفاضلة، ودفع الظلم وتثبيت العدل، وتبادل الخبرات والتجارب التي تعين على عمارة الأرض وإصلاحها، وتحقيق التعاون العلمي والاقتصادي والبيئي، والتأكيد على المشترك الحضاري والإنساني لما فيه خير البشرية جمعاء.

الخاتمة:

اعتنى الإسلام بأهل الكتاب أيما اعتناء حيث سعى إلى ترسيخ الاحترام المتبادل بين أهل الشرائع المختلفة قولا وفعلا، وقد ظهر ذلك جليا من خلال نصوص القرآن الكريم وتطبيقاتها النبوية التي بسطناها في ثنايا هذه الدراسة، وما على المسلمين إلا أن يمتثلوا تلك القيم في سلوكاتهم وأخلاقهم مع الكِتابيين غير المحاربين اقتداء بالرسول الكريم ونشرا للدين الصحيح والفهم السليم.

النتائج:

- قرر الإسلام المساواة البشرية بين كافة الناس وجعل معيار التفاضل بينهم هو التقوى والعمل الصالح.
- خصص القرآن الكريم آيات كثيرة للحديث عن مزايا أهل الكتاب ومحاسنهم عقيدة وسلوكا.

- نظم الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقة بين مكونات المدينة المنورة من مسلمين ويهود ووثنيين بصحيفة المدينة، وقد تضمنت سبعا وأربعين مادة، اثنتان وعشرون منها تتعلق بالعيش المشترك والعِشرة الحسنة مع اليهود، فيما تعود مسألة إجلائهم إلى خيانتهم للدولة وليس باعتبارهم شريعة مختلفة.
- كانت للنبي صلى الله عليه وسلم لقاءات مع النصارى، مثل لقائه مع الراهب بحيرى، وورقة بن نوفل، وزواجه من مارية القبطية، كما التقى عددا من الوفود النصرانية حين هاجر إلى المدينة.
- من النماذج التي تدل على اللقاء المتواصل بين المسلمين والنصارى منذ زمن بعيد، لقاء النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد نصارى نجران، وعهده مع نصارى دير سانت كاترين وأهل حمير، ولقاؤه صلى الله عليه وسلم مع الجارود بن عمرو.
- سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم على نهج الرسول صلى الله عليه سلم في التعامل مع النصارى، مما يثبت بما لا يدع مجالا للشك احترام الإسلام لأهل الشرائع الأخرى من خلال منحهم الحرية الشخصية الكاملة بما فيها حرية العقيدة والعبادة وبناء الكنائس.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتب:

1- القرآن الكريم.

2- الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب، هاني مبارك، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط2، 2004.

3- الإسلام والحوار الحضاري، مانع بن حماد الجهني، ضمن كتاب: "الإسلام وحوار الحضارات"، أعمال الندوة التي نظمتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 2004.

4- انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منه، محمد فتح الله الزيادي، بيروت، دار قتيبة، 1990.

5-إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ترجمة: عفيف دمشقية، بيروت، منشورات دار الآداب، ط2، 1983.

6- البداية والنهاية، اسماعيل بن كثير، بيروت، مكتبة المعارف، ط1، 1966.

7- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، بيروت، مؤسسة عز الدين، ط3، 1992.

8- تفسير القرآن العظيم، اسماعيل بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض، دار طيبة، ط2، 1999.

9- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1427هـ.

10- الحضارة الإسلامية وأثرها في الغرب، ياغي اسماعيل محمد، الرياض، مكتبة العبيكان، ط2، 1422هـ.

11- الحوار الاسلامي المسيحي: المبادئ، التاريخ، الموضوعات، الأهداف، بسام عجك، دار قتيبة، ط2، 2008.

12- حياة محمد صلى الله عليه وسلم، محمد حسين هيكل، القاهرة، دار المعارف، ط14، 1981.

13- الخراج، أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم، القاهرة، الطبعة السلفية، ط2، 1383ه.

14- روح الإسلام، سيد أمير علي، ترجمة أمين الشريف، القاهرة، مكتبة الآداب، 1961.

15- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، بيروت، دار المعرفة، 1978.

16- سماحة الإسلام، محمد أحمد الحوفي أحمد، القاهرة، مكتبة الأسرة، 1977.

17- سنن ابن ماجة، أبي عبد الله بن محمد بن زيد بن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث، 1395هـ.

18- سنن أبي داود، تحقيق: محمد عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ط1.

19- السير والمغازي، محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط1، 1978.

20- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط7، 1999.

21- صحيح البخاري، شرح الكرماني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1981.

22- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1991.

23- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، أبو الفتح محمد بن سيد الناس اليعمري، تحقيق: محمد الخطراوي ومحيي الدين مستو، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث.

24- فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، تحقيق: عبد الله أنيس وعمر أنيس، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987.

25- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1981.

26- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، بيروت، دار النفائس، ط6، 1987.

27- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1993.

28- معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، نريمان عبد الكريم أحمد، الهيئة المصرية العامة، دط، 1996.

29- المغازي، محمد بن عمر الواقدي، بيروت، عالم الكتب.

30- مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، دار الشروق، ط2، 1990.

المجلات:

1- أدب الحوار والخلاف في الشريعة الإسلامية، أحمد صحاوي. مجلة دراسات، العدد 1.

2- التربية الحوارية، علي القرشي، مجلة المسلم المعاصر، العدد 88.

3-التعايش الإسلامي المسيحي في ظل الحضارة الإسلامية، الحاج عبد الله أمبنغ، مجلة التواصل، السنة الرابعة، العدد 16، 2008/2007.